مبحثٌ في التوبةِ النَّصوح

الحمدُ للهِ التوّابِ الرحيم، فتحَ لعباده باب التوبة، ووعدَ التائبين بالمغفرة والقبول، والصلاةُ والسلامُ على نبيّ التائبين وإمامِ الموحّدين محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين. أمَّا بعد:

أصلُ التسميةِ ودلالةُ النصوص:
أصلُ تسمية التوبة النَّصوح من قوله تعالى:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ...} [التحريم: 8]. وهذه الآيةُ أصلٌ في الباب، تضمَّنت الأمرَ العامَّ، وبيانَ أثرها: تكفيرَ السيئات وإدخال الجنان ،
ومن أصوله قوله تعالى: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور:31] ،
وقوله تعالى على ألسنة المرسَلين لأقوامهم (سورة هود):
{اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ} [هود:52، 61، 90]، فقرنَ الاستغفارَ بالتوبة، وجعلهما سببًا للرحمة، وزيادة القوة، ونزول البركات، وأرجى آية في كتاب الله: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} [الزمر:53].

ومن دلائله كذلك: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ}، {وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا} [الفرقان:70–71]، وقوله: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ} [آل عمران:135]

تعريفُ التوبةِ النَّصوح:
التوبة لغةً: الرجوع،
وشرعًا: رجوع العبد إلى الله إقلاعًا عن الذنب، وندمًا عليه، وعزمًا صادقًا على ألاّ يعود، مع ردِّ المظالم إلى أهلها.
قال عمر رضي الله عنه: [التوبة النصوح أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن في الضرع.]، وقال الحسن البصري رحمه الله:
[هي ندمٌ بالقلب، واستغفارٌ باللسان، وتركٌ بالجوارح، وعزمٌ على ألا يعود.].

شروطُ قبول الأعمال وشروطُ التوبة:
لا تُقبل عبادةٌ إلا بشرطين: الإخلاصُ لله (الدليل: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [البينة:5]، وقوله: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ} [الكهف:110])، والمتابعةُ للنبي ﷺ: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد))، (متفق عليه)، ومعناها: ما ليس على هَدْيه ﷺ فهو مردود، وشروط التوبة إذا كانت في حق الله: الإقلاعُ عن الذنب فورًا، والندمُ، والعزمُ على عدم العَوْد،
وإن تعلقت بحقوق العباد زِيدَ ردُّ الحقوق أو استحلالها؛ لحديث: ((من كانت له مظلمة لأخيه من عرضٍ أو شيء فليتحلله اليوم))، (البخاري).
وقت قبولها:
ما صح عنه صلى اللّه عليه وسلم قوله ((إنَّ الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر))، (التِّرمذي، حسن)، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها))، (مسلم)

أقسامُ الذنوب، تركُ الأوامر وفعلُ النواهي:
دلّ القرآن على أن تركَ الأمر أعظم؛ لأن منشأه الكِبْرُ كما في قصة إبليس: {أَبَى وَاسْتَكْبَرَ}، بينما فعلُ النهي غالبُه ضعفُ نفسٍ وشهوةٌ كما في خطأ آدم عليه السلام، فلعن ابليس وطرد من رحمة الله لتركه وعصيانه واستكباره عن فعل الأمر فصار من أهل النار ولم يقبل الله منه توبة، وأما آدم { فعصى آدم ربه فغوى } {ثم اجتباه ربه فهدى } واعاده من حيث أخرجه إلى جنة المأوى وفردوسه الأعلى ،
وقرَّر شيخ الإسلام ابن تيمية فقال :
[تاركُ المأمور أعظمُ إثمًا من فاعل المحظور], فدلّ ذلك على خطورة ترك الواجبات (وأعظمها التوحيد والصلاة)، وانما هذا التقسيم حتى يتدارك المؤمن التوبة الأعظم فالأعظم والأصل التوبة من الذنوب جميعا، فتنبه يا عبّد الله من هذا الأصل وألزمه، فكم من تائب عن معصية منشأها الشهوة وضعف الايمان والارادة ، لم يتب من اعظم منها في تركه للأوامر الشرعية التي هي أعظم وأخطر .

التوبةُ من الشِّرك والبدع والكبائر:
1.الشِّرك:
أعظم الذنوب، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء:48]. فالتوبة منه مقدَّمة على كل توبة. وقد صحّ قوله ﷺ في التحذير من الشرك الأصغر (الرياء): ((أخوف ما أخاف عليكم الشركُ الأصغر))، (أحمد، وحسّنه جمع). وقرَّر أئمةُ السلف أن الشركَ الأصغر أعظمُ من كبائر الذنوب؛ لأنه من جنس الشرك الذي لا يُغفر إلا بتوبة، وإن كان صاحبُه لا يخرج من الإسلام.
2.البِدع:
قال السلف: [البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ لأن المعصية يتاب منها، والبدعة قلّ أن يُتاب منها], لأن صاحبها يراها دينًا وقربة.
3.الكبائر/الموبقات:
قال ﷺ: ((اجتنبوا السبع الموبقات))، (متفق عليه)، ومن مات مرتكبًا كبيرةً غيرَ مشرك ولم يتب فهو تحت المشيئة، إن شاء الله برحمته وفضله غفر وعفا، وإن شاء عاقَب بعدله وعلمه لقوله تعالى: {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}، أمّا مع التوبة النَّصوح فلا تبقى للكبائر مؤاخذة، بل يُبدّلها الله حسناتٍ ، وذلك إذا أخلص العبد وصدق مع ربه قد اجتمع في قلبه الخوف والرجاء والمحبة ، فكلما كمل ذلك في قلبه صار لقبول توبته أقرب وأعظم ، وهنا يُعرف حقيقة التوحيد وأهميته .

التوبةُ ثم العَوْد: بقاءُ أثرِ التوبة الصادقة
من تاب توبةً نصوحًا صادقة علمَ اللهُ صدقَه فقبلها ومحا ذنوبَه، فإن غلبته نفسُه فعاد ثم تاب، قُبلت منه ثانيةً وثالثةً... ما دام صادقًا في كلّ مرَّة، فوفي صحيح مسلم حديثُ العبد الذي يُذنب ثم يقول: ((اغفر لي))، فيقول الله عز وجل: ((علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، قد غفرتُ لعبدي))، ويتكرر ذلك ما دام يستغفر ويتوب (مسلم) ، " يغفر الذنب" كمال الرجاء ، " ويأخذ بالذنب" كمال الخوف ويجمع ذلك محبة العبد لربه وصدقه ، فان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وقد قال عليه الصلاة والسلام في شارب الخمر بعد ان أقيم عليه الحد ((لا تعينوا الشيطان على اخيكم فإنه يحب الله ورسوله))، واعلم - رحمني الله واياك - فـأثرُ التوبة الأولى لا يَحبط بالرجوع، بل يُثاب العبدُ عليها، ثم يُطالَب بتوبةٍ جديدة مما عاد إليه، وهذا من سَعة رحمة الله، وهو خاصٌّ بمن حقّق الإخلاصَ والتوحيد وجاهد نفسَه، حتى يختم اللهُ له بتوبةٍ نصوح قبل موته.

التوحيدُ والإخلاصُ: سرُّ ثبات التوبة وصدقها
التوبة عبادة، والعبادة لا تُقبل إلا بتوحيدٍ وإخلاص؛ ولذا لا تصلح توبةٌ بلا توحيد، وكلما ازداد العبد تحقيقًا لـ{لا إله إلا الله}

علمًا وعملاً وحالًا، قويَت عزيمتُه، وانكسر قلبُه بين الخوف والرجاء، وامتلأ محبةً لله، فسهُل عليه الرجوع الدائم، قال ابن القيم:
[التوحيدُ حصنُ الله الأعظم، فمن دخلَه كان من الآمنين], وبه تُثمر التوبةُ النصوح.

معرفةُ الكبائر والحذرُ من الشرك

من واجبات العلم أن يتعلم العبدُ الكبائر ليتجنبها ويبادر بالتوبة منها؛ فهي التي لا تُكفِّرها الأعمالُ المكفِّرة (كالصلوات والجمعة ورمضان) إلا باجتناب الكبائر (مسلم)، ومن أشهرها وأعظمها:
الشرك، البدعة ، عقوق الوالدين، قتل النفس، السحر، أكل الربا، أكل مال اليتيم، القذف، الزنا، السرقة، شهادة الزور... وغيرها مما دلّ عليه القرآن والسنة، وحرّرها الأئمة كالإمام الذهبي في الكبائر ، ويجبُ أشدُّ الحذر من الشرك بنوعيه: أكبره (المُخرج من الملّة)، وأصغرِه (كالرياء والحلف بغير الله)، فـالأصغر أعظمُ من سائر الكبائر وإن لم يُخرج، وصاحبُه تحت المشيئة، ويُخشى عليه العذاب إلا أن يتوب.

أعمالٌ مؤكَّدة تُلازم التوبة وتُعين عليها:
أولاً:
عليك -يا عبد الله- بسيدُ الاستغفار صباحًا ومساءً بإخلاصٍ ويقين:
((اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك... فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها موقنًا فمات من يومه دخل الجنة)) (البخاري)، واجعله في كل الذنوب كبيرها وصغيرها ، وبادر بالأعمال الصالحة ، فان أول منازل هذه الأعمال الصالحة توفيق الله لك بأن وفقك لهذا الدعاء موقنا بما تضمنه من أنواع التوحيد الثلاثة.
ثانياً:
الإكثار من الاستغفار عمومًا؛ ففي مسلم: ((إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار...... حتى تطلع الشمس من مغربها)) او كما قال عليه الصلاة والسلام.
ثالثاً:
لزومُ الفرائض وإتقانُها، وأوّلُها الصلاةُ؛ فهي أعظم أبواب الهداية والثبات، وأعظم مكفرات الذنوب من الأعمال الصالحة، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟))، قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: ((فذلك مثل الصلوات الخمس؛ يمحو الله بهن الخطايا)))؛ متفق عليه،
رابعاً:
ردُّ المظالم والتحلُّل من حقوق العباد.
خامساً:
قطعُ أسباب المعصية، ومفارقةُ قرناء السوء، ولزومُ أهل الإيمان والعلم.
سادساً: كثرةُ الدعاء والتضرع، وتعاهدُ القلب بالمراقبة، وتلاوةُ القرآن بتدبر.

علاماتُ التوبة الصادقة وثمراتُها:
من علاماتها، هو انكسار في القلب، وحلاوةُ الطاعة بعد مرارةِ المعصية، وبُغضُ الذنب، ومحاسبةُ النفس، وكثرةُ الأعمال الصالحة، ومن ثمراتها بنصوص الوحي، محوُ الذنوب وتبديلُ السيئات حسنات، ومحبةُ الله للتوّابين، وصلاحُ البال، وتيسيرُ الرزق، ونزولُ البركات، وبِشارةُ الجنة.

مسائلُ جامعة:
- التوبة من الكبائر واجبةٌ على الفور، وهي سببُ النجاة، ومن مات غيرَ تائبٍ فهو تحت المشيئة ما لم يكن شركًا أكبر.
- لا تصحُّ التوبة بلا توحيد؛ لأنها عبادةٌ، والعبادة لا تُقبل إلا بإخلاصٍ ومتابعة.
- مَن صدقَ في توبته ثم غلبته نفسُه فعاد، فليجدد التوبة؛ وأثرُ توبته الأولى باقٍ، والله كريمٌ يقبلُ توبةَ عبده ما دام حيًّا قبل الغرغرة.
- البدعةُ أخطرُ من المعصية؛ لأنها تُلبَس ثوبَ الدِّين، فالتوبةُ منها تكون بالرجوع إلى السنّة وتعظيم الاتباع، وطرحِ الهوى والخرَص.

فهذا تأصيلٌ سلفيٌّ في التوبة النَّصوح، جامعٌ لأصول الباب: من تحقيق التوحيد والإخلاص، ومعرفةِ شروط التوبة وأوقاتها، ومراتب الذنوب وخطورتها، والتنبيه على تعلم الكبائر والحذر من الشرك بنوعيه، وبيانِ أن أثر التوبة النصوح باقٍ ولو عاد العبدُ فتاب، وأن رحمةَ الله أوسعُ من الذنوب كلها لمن صدق.

نسأل الله أن يرزقنا توبةً نصوحًا قبل الموت، ويثبتنا عليها حتى نلقاه.
———–

مبحث عقدي هام تابع للمبحث :

هل من مات مُصرًّا على الشرك الأصغر تحت المشيئة؟

الجواب المختصر:
نعم، هو تحت مشيئة الله تعالى من جهة أصل الإيمان، لكنه على خطرٍ عظيمٍ لأن ذنبه داخلٌ تحت اسم الشرك ، وقد قال الله تعالى:
{إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء:48].
فالشرك الأكبر لا يُغفر إلا بالتوبة، أما الشرك الأصغر فلا يخرج صاحبه من الإسلام، لكنه أعظم من سائر الكبائر، ولهذا خافه الصحابة والسلف أكثر من غيره.

قال الشيخ ابن باز رحمه الله – تأمله جيدا– :
[الظاهر أنه لا يُغفر له إلا بأحد أمرين:
إمّا برجحان الحسنات، وإمّا بالتعذيب بقدر شركه، ككبائر الذنوب، إن لم يتب منها كان تحت مشيئة الله، لكن هذا ما هو داخلٌ تحت المشيئة؛ لأنه باسم الشرك، فهو خطير، إمَّا يُعَذَّب أو يُغفر له إذا رجحت حسناته.] انتهى
(مجموع فتاوى ابن باز 7/187).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:
[الشرك الأصغر لا يخرج من الملة، ولكن صاحبه تحت الوعيد، ولا يكون بمنزلة أصحاب الكبائر، فإن اسم الشرك أعظم الأسماء وأخطرها.].
(مجموع الفتاوى 7/492)

وقال ابن القيم رحمه الله:

[الشرك وإن صغُر، فاسمُه يتضمن من محادة الله ورسوله ما يجعله أعظم من سائر الكبائر، ولهذا خافه المؤمنون على أنفسهم خوفًا أعظم من خوفهم من الكبائر.]
(مدارج السالكين 1/343)

والخلاصة:
أن من مات على الشرك الأصغر فهو:
- تحت مشيئة الله من حيث بقاء أصل إيمانه؛ لأن الشرك الأصغر لا يُخرج من الملة.
- لكنه في خطرٍ شديدٍ لأنه ذنبٌ يختص باسم الشرك، وقد لا يُغفر إلا بمغفرةٍ خاصةٍ أو برجحان الحسنات، كما قال ابن باز رحمه الله.
- والنجاة منه تكون بـتحقيق التوحيد والتوبة النصوح منه قبل الموت، إذ لا يُؤمَن أن يتدرج به إلى الشرك الأكبر.
ـــــــــــــــــــ



بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي فتح لعباده باب التوبة والإنابة، وجعل تحقيق التوحيد سببًا لمغفرة الذنوب والسيئات، والصلاة والسلام على نبينا محمدٍ المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعدُ؛ فجزاكم الله خيرًا أختنا الفاضلة على إحالتكم النافعة ومشاركتكم الموفقة، والمقال الذي ذكرتموه -تبصير أولي التذكرة بأن صاحب الشرك الأصغر قد تناله المغفرة- ، من البحوث السلفية النافعة التي أحسن مؤلفها في تحرير القول الراجح عند جمهور أهل السنة، وهو أن صاحب الشرك الأصغر داخل تحت المشيئة، وقد تناله المغفرة، ولا يُخلّد في النار،

لأن اسمه مؤمن موحد وإن نقص توحيده.
غير أن النصوص الدالة على المغفرة كحديث "البطاقة" المشهور ، وحديث ((من أتى بقراب الأرض خطايا))، لا يراد بها مجرد القول اللفظي للتوحيد، بل ما ظهر من أثره في القلب بتحقيق التوحيد، ودوام الاستغفار، والتوبة النصوح قبل الموت؛ فإن الله علم من صدق صاحب البطاقة وكمال إخلاصه ما رفع به درجته، فطاشت تلك السجلات العظيمة من الذنوب أمام بطاقةٍ واحدةٍ تحمل صدق ((لا إله إلا الله))، في قلبٍ امتلأ خوفًا ورجاءً ومحبةً لله تعالى.

وهذا من أعظم الشواهد على أن تحقيق التوحيد وجهاد النفس في ترك الشرك الأصغر والخفي هو أعظم أسباب النجاة، وأن العبد مهما اجتهد فهو في تقصيرٍ دائم، لكن رحمة الله سبقت غضبه؛ فشرع له أبواب الاستغفار والإنابة والتوبة النصوح التي لا تنفك عن الموحد الصادق.
قال الله تبارك وتعالى:
{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} [محمد: 19].
فعطف الاستغفار على التوحيد بعد العلم به، ثم عطف استغفار المؤمن لنفسه ولإخوانه، إشارة إلى أن دوام الاستغفار من لوازم كمال التوحيد، وأن الله جمع المؤمنين جميعًا -أحياءهم وأمواتهم- في هذا الباب، ليكون استغفارهم بعضهم لبعض من أعظم أسباب نجاتهم، كما سيجمعهم بسببه في الجنة إخوانًا على سرر متقابلين.

وهذا هو المقصود الأعظم من هذا المبحث، وهو أن التوحيد الصادق والتوبة النصوح متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، وأن النجاة لا تكون إلا لمن حقق الإخلاص لله، وجاهد نفسه على ترك الشرك ظاهرِه وخفيِّه، وداوم على الاستغفار والتوبة حتى يلقى الله طاهرًا من الذنوب.
ـــــــــــــــ



بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله وحده والصلاة والسلام علي من لا نبي بعده وعلى اله وصحبه اجمعين... اما بعد :

جزاكم الله خيرًا أختنا الفاضلة على إثارة هذا الجانب المهم، ومسألة حقوق العباد من أوسع أبواب العدل الإلهي وأدقها، وهي تدور على أصلين عظيمين:

الأصل الأول:
أنَّ الحقوق لا تسقط أبدًا؛ فمَن حملها معه بعد موته ولم يتحلَّل منها في الدنيا، بقيت مطالِبةً له يوم القيامة، كما في قوله ﷺ:
((من كانت له مظلمة لأخيه من عرضٍ أو شيءٍ فليتحلله اليوم)) [البخاري].
و((لَتُؤدَّنَّ الحقوقُ إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء)) [مسلم].

الأصل الثاني:
أنَّ المصير والمآل يوم القيامة إلى الله وحده، فالحساب إلى الميزان لا إلى الخصوم، كما في حديث المفلس، يأخذ المظلوم من حسنات ظالمه، فإن فنيت طُرحت عليه سيئاته، فمنهم من ينجو بعظيم ما عنده من حسنات يضاعفها الله أضعافا مضاعفة بحسب كمال توحيده وإخلاصه ، فينجو من النار بشق تمرة ، وقد يهلك لمن لم يملىء صحيفته بالأعمال الصالحة التي قرنها الله مع التوبة والايمان،

ولكن الله برحمته قد يرضي الخصوم بعفوه، ويزيدهم من فضله، فيعوّضهم بتلكم الحسنات التي كانت سيئات ابدلها الله لهم حسنات كما في
قوله جل وعلا:
{إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ}،
وهنا سر بديع في التوبة النصوح فتأمليه، فان الله برحمته وفضله اراد ان يزيد من حسنات التائب في صحيفته، حتى إذا اراد خصومه القصاص لهم في حقوقهم كانت صحيفته مليئة بالحسنات بقدر سيئاته التي كان يعملها ولو كانت كقراب الارض خطايا ،-فتأملي هذا رحمني الله واياك - .

أو يرفع عنهم سيئات بعفوه حتى يرضوا، لأن المقصود في عرض الميزان، النجاة بالحسنات لا الهلاك بالخصومة، إنما الهلاك برجحان السيئات على الحسنات ، وقد ينجو ايضا كما في حديث البطاقة وبشفاعة الشافعين وبرحمته جل وعلا .

ولذلك فحقوق العباد باقية لا تسقط، أما الحكم في المآل من نجاةٍ أو هلاكٍ فهو إلى الله وحده، {مَالِكِ يَوْمِ الدِّين}، الرحمن الرحيم، الذي سبقت رحمته غضبه، وله مائة رحمة، جعل منها واحدة في الدنيا يتراحم بها الخلق، وأجّل تسعًا وتسعين لعباده يوم القيامة.

ولعلّي -بإذن الله - أُفرد هذا الباب بمبحثٍ مستقلٍّ فيه مزيدُ تفصيلٍ وتأصيلٍ علميٍّ نافعٍ بإذن الله.